السفن والملاحة بمصر

للدكتور علي مظهر

مصر القديمة

ان صح ما نقله المقريزي البنا في خططه (ص ١٩ ج ١) كان مصرايم حفيد نوح هو اول من صنع السفن في النيل ولكن ذكر ان اول سفينة كانت ثلاثمائة ذراع طولاً في عرض مائة ذراع ونحن نرتاب في هذا الامر ونعتقد ان حجم تلك السفينة مبالغ فيه

ويظهر ان سكان مصر في العصور القديمة كانوا يمتنون ببناء السفن سيان كان ذلك في النيل او في البحار المالحة وقد كان النيل هو اهم طرق المواصلات في القديم وربما كانت سفن النيل من اسرع هاته السبل واقلها كلفة ومشقة . كما ان سواحل مصر نفسها على البحرين الابيض والاحمر وسواحل البلاد التي افتتحتها كبلاد الشام وغيرها وحاجة مصر الى نقل جندها الى البلد الذي تريد وحماية تلك السواحل والقيام على حراستها وحاجة مصر الى ان تكون على صلة تجارية او غير تجارية مع البلاد الاخرى جعلها تعنى ببناء السفن وصنع الاساطيل لما قدمنا من الاسباب

والوانر الآثار مصر الباقية يرى رسوماً عديدة لسفن تمخر البحار وقد رأينا كثيراً من ذلك في المقابر القديمة والبنايات التي تركتها لنا يد الحدثان وقد روى كثير من المؤرخين ان اول من صنع السفن بعد الطوفان هو « مينا » قبل الميلاد بنيف وخمسة آلاف سنة [1]

وكثر اختلاط قدماء المصريين بالأمم الاخرى لا سيما الفينيقيين الذين برّزوا غيرهم في العصور القديمة في صناعة السفن وتركيب البحر ولذا أخذ المصريون يتقنون صناعة السفن حتى وصلوا الى مكانة حسدوا عليها في تلك العصور . ولما اخضع فراعنة مصر فينيقية لسلطانهم زادت تلك الصناعة عندهم خطراً وكان اهل مصر كغيرهم يستعملون الشراع والمجاديف في اسفارهم النيلية وكانوا يشدون القلاع على الصواري على هيئة المربع (وليس على هيئة المثلث كما يرى الآن) . واذا ما انحدروا من أعلى النيل انزلوا الشراع ونكسوا الصواري واستعملوا المجاديف [2] . وكانت السفن المعدة للبحار الملحة تشبه السفن النيلية في الشكل والاستعمال ولكنها كانت اكثر صلابة واكبر من سفن النيل

وكانت السفن تحمل الأحجار اللازمة للبناء كما كانت تسير الى بلاد العرب وبلاد الشام لنقل الاخشاب النفيسة والصمغ والعطور والذهب والفضة واللازورد والحجارة النفيسة والمتاجر كما كانت تسير لحمل الجنود المقاتلة وكثيراً ما فعلت وعادت منصورة . وقد ذكر عن حاتاسو ابنة تحوتمس الاول ثالث ملوك العائلة الثامنة عشرة بطيبة انها سارت لقتال بلاد « بون » ولما حاربت اهلها وانتصرت عليها وكانت هي أول ملوك مصر الذين قادوا الاساطيل في البحر الملح [3]

(١) حقائق الاخبار ص ٢ ج ٢ (٢) حقائق الاخبار ص ٤ ج ٢ (٣) حقائق الاخبار ص ٥ ج ٢

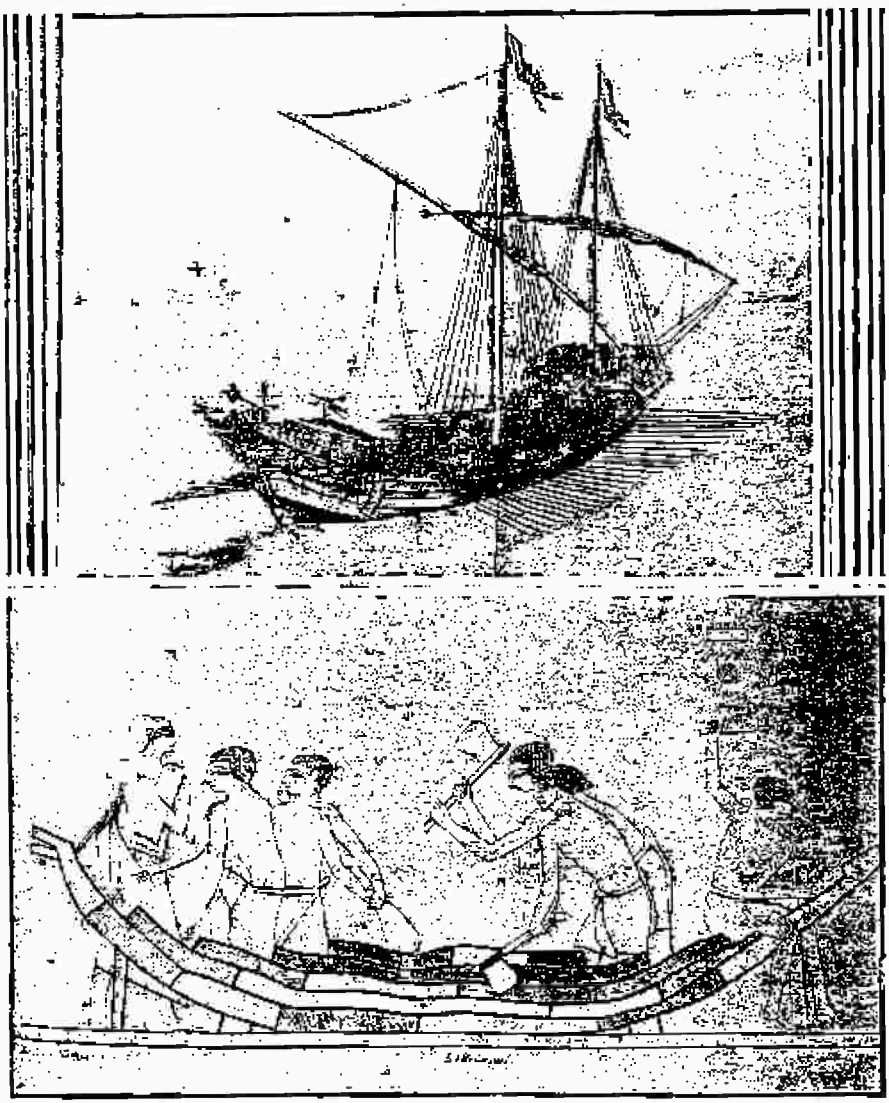

صناعة السفن في عهد الاسرة الثانية عشر

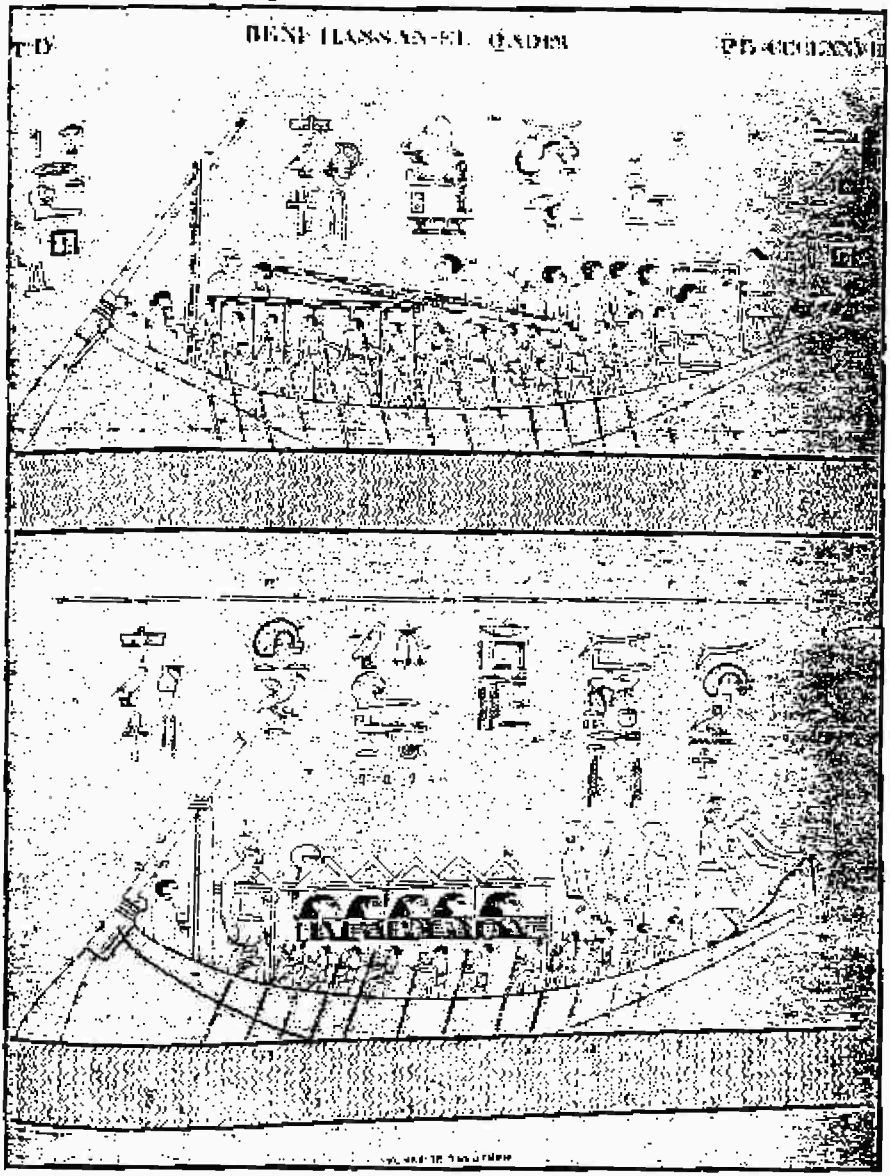

سفن مصرية صنعت في عهد الاسرة الثانية عشرة

وترى صور تلك الغزوة البحرية على جدران مباني «القرنة» وقد صورت السفن تصويراً حسناً

وقد ذكر ديودورس الصقلي ان رمسيس الثاني كان مهتماً بأمر البحرية المصرية فشيد جملة سفن في البحر الاحمر والبحر الابيض وبعث من القصير اسطولاً كبيراً به نيف وثلاثمائة سفينة حربية واستولى على سواحل هذا البحر وعلى جزره ومدنه وثغوره كما استولى على جزائر بحر الهند . وارسل اسطولاً ثانياً الى سواحل فينيقية فاستولى عليها وعلى كثير من جزائر بحر الارخبيل بعد ان هزم اليونان في عدة وقائع بحرية بينما كان يفتح الفتوحات الكثيرة في اواسط آسيا وافريقيا وروى البعض ان فتوحاته كانت اكثر من فتوح اسكندر المقدوني الشهير [1]

وذكر ديودورس الصقلي ايضاً ان سيزوستريس انشأ في النيل سفينة كبيرة بلغ طولها ما يعادل ١٤٠ متراً . وذكر بلينيوس ان احد البطالسة انشأ سفينة في مثل هذا الطول وعليها اربعمائة بحار واربعة آلاف جذاف ونحو ثلاثة آلاف جندي [2] وآثار المبالغة واضحة جداً فيه ولعله يقصد سفناً لا سفينة واحدة . وكانت القوة البحرية المصرية في عهد بطليموس الاول اكبر واعظم قوة في العالم البحري حينئذٍ (٢٩٣ ق.م) فقد كان في دار الصناعة نحو ٣٥٠٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة حربية وتجارية وكان يعنى بالقرن البحرية وصناعة السفن وقد ارتقت الملاحة المصرية في ايامه واتسع نطاق التجارة العامة البحرية [3] . ويجمل بنا ان نذكر عناية الملك نيخاوس الثاني (٦١٢ ق.م) فقد اعدّ اسطولاً لاستكشاف سواحل افريقية

واستخدم بعض الفينيقيين وامرهم ان يسافروا في البحر الاحمر من خليج السويس الى الجنوب وقيل انهم لبثوا زهاء ثلاث سنوات حتى جاوزوا الى رأس الرجاء الصالح وصعدوا شمالاً حتى بلغوا بحر الزقاق (جبل طارق) ودخلوا البحر الابيض حتى وصلوا الى مصر ورووا ما شاهدوه اثناء سفرهم وقد كانت هذه الرحلة من اخطر المشاريع البحرية شأناً واحفها بالاخطار في الازمان القديمة وكل من يطالع هذا الخبر يلحقهُ العجب من ان ملكاً من ملوك مصر كان يعيش قبل ٢٥٠٠ سنة يقوم بعمل كبير كهذا العمل وهو لم يتيسر الاّ لملوك البرتقال منذ ٤٠٠ سنة فحسب . ويظهر ان قوات مصر البحرية بالبحر الاحمر كانت اكثر منها بالبحر المتوسط . وفكر كثير من ملوك مصر مثل سيزوستريس ونيخاوس وبطليموس الثاني وغيرهم في توصيل البحرين بحفر ترعة نيلية لجمع الاساطيل في اي مكان يحتاج اليه عند الضرورة . وقد ساعدت تلك الاساطيل مصر في فتوحها وغزواتها فقد امتدّ سلطانها على اكثر جزائر بلاد آسيا والبحر الاحمر وافريقيا وجزائر اليونان وسوريا

وقد ضربنا صفحاً عن شكل السفن ومعداتها في ذلك العصر القديم ومن اراد التوسع في ذلك فليراجع ما كتب في حقائق الاخبار في اوائل الجزء الثاني

مصر بعد الفتح الاسلامي

وجاء عمرو بن العاص الى مصر غازياً وفاتحاً من قبل الخليفة عمر وقد تسنى لذلك الغازي ان

(١) حقائق الاخبار ص ٦ ج ٢ (٢) حقائق الاخبار ص ٧ ج ٢ (٣) حقائق الاخبار ص ٧ ج ٢

يستولي على بعض سفن الروم في واقعتي الاسكندرية ثم صرّح الخليفة بركوب البحر فأخذ في صنع السفن في مصر على مثال سفن الروم

وقد رأينا عبد الله بن ابي سرح يخرج على رأس اسطول مصري مركّب من مائتي سفينة لغزو قبرص (٢٨ هـ) ثم قاد اسطولاً آخر في مثل هذا العدد المذكور (٣٤ هـ) في واقعة ذات الصواري التي انتصر فيها على قسطنطين بن هرقل وكان قد جاء في الف مركب يريد الاسكندرية فنصر الله عبد الله وقيل انها سميت غزوة ذات الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها وتسمى في كتب الافرنج بواقعة فونيكنته Phoeniconte البحرية لوقوعها بالقرب من فونيكه . وبعد هذه الواقعة ازدادت اساطيل الاسلام بسرعة حتى تمكنت اساطيل معاوية من فتح برقاء غليبولي سنة ٦٥٥ م . ولولا النار الاغريقية اذ ذاك لتمكّن معاوية من فتح القسطنطينية التي قصد فتحها سنة ٦٦٨ م بعد ان أعدّ لها عدته من الاساطيل . وفي عهد الخليفة المتوكل العباسي نزل الروم بدمياط في يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين وامير مصر يومئذٍ عنبسة بن اسحق فملكوها وقتلوا بها جمّاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال وساروا الى تنيس فقاموا باشتورها ولذا اهتمّ بأمر صناعة السفن للدفاع وأنشئت الشواني برسم الاسطول وجعلت غزاة البحر كما كان هناك عسكر للبر

عصر الطولونيين والاخشيد

وقد عني ابن طولون بامر الاساطيل فزاد في بناء السفن وجهزها بالآلات والرجال وكانت دار الصناعة ايامه بجزيرة الروضة . وكان يلشأ بها الحربيات والشلنديات وغيرها من انواع السفن وصار لهُ بها الهيبة في قلوب اعدائه[1] وذكر ابن اياس انهُ لما مات احمد بن طولون (٢٧٠ هـ) ترك الف مركب من سفن الحرب والشواني وقد عني بنوه بهذا الامر وانشأوا السفن للحرب وكانت لهم قوة بحرية ذات شأن وخطر حتى ان كانت ايامهم الاخيرة واخذت بحريتهم تقل قيمتها وتنقرض

ولم تكن عناية الاخشيديين بالسفن كبيرة ولذا طمع الروم في الاغارة على مصر وقد جاءوا الى دمياط عام ٣٥٧ هـ في بضع وعشرين سفينة فقتلوا واسروا مائة وخمسين من المسلمين واستمرت الاستهانة بامر هذه الصناعة حتى زالت دولتهم بقدوم الفواطم الى مصر

عصر الفواطم

أما عناية الفواطم بالاسطول فكانت كبيرة جدًّا وقد عني بها المعز لدين الله منذ قدومه لمصر وتابعهُ بنوه في هذا الطريق فقد كانت المراكب تنشأ بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط واوسعوا في النفقة على امراء السفن ومن ركب البحر وكانت السفن ايام المعز لدين الله نيفاً وستمائة قطعة ولم تنقص في اواخر ايامهم عن مائة قطعة . وكانت لهم منظرة يجلس فيها الخليفة لوداع الاسطول ولقائهِ على ساحل النيل الى جوار جامع المقس فكان يجلس الخليفة في تلك المنظرة يستعرض الاساطيل ويوسع في العطاء لهم وما غنمه الاسطول فهو للغزاة لا يشاركهم فيهِ احد الاَّ ما كان من الاسرى والسلاح. وقد قلّت العناية بالاساطيل عقب سقوط دولة الفواطم لهذا تجرأ الفرنجة على الدنو من مصر (تتلى)

(١) حقائق الاخبار ص ٢٤ ج ٢